

القناع وقناع الإمام الحسين عليه السلام في شعر عبد الوهاب البياتي

بهرام أماني جاكلي*
رقية سفرى**

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٦/١٠ هـ ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٩/١١ هـ ش

الملخص

القناع ليس مجرد حالة من تلبس شخصية أخرى، يختفي صوت الشاعر المباشر خلفها من بداية القصيدة إلى نهايتها، أو هو الاسم الذي يتحدث من خلاله الشاعر عن نفسه متجرداً من ذاتية، أو هو مجرد، شخصية تاريخية... يختبئ الشاعر وراءها ليعبر عن موقف يريده، أو يحاكم نقائص العصر الحديث من خلالها، أو ليتحدث من ورائه عن بعض شواغله وهمومه، أو ليهرب من الحاضر بخلق بديل له. يمكننا القول، إنَّ القناع في شعر العربي له عوامل متعددة منها: العوامل السياسية، والاجتماعية، والفنية، والثقافية، والقومية، وللقناع أنواع، منها: الديني والصوفي، والتاريخي، والأدبي، والأسطوري، والشعبي، وأنماطه هي البسيط، والمركب والمخترع.

وظف البياتي شخصية الإمام الحسين عليه السلام في ديوانه بصورة غير تصريحية لإثراء تجربته الشعرية وبيان معاناته ومأساة شعبه. إذ تقمص هذا القناع ليسلط الضوء على العربية بشكل غير مباشر ويبرزها بكافة جوانبها الأليمة ووازن في تقمصه لهذا القناع بين ملامح تجريبية معاصرة والملاحم التراثية باحثاً عن نصير في ضياع وطنه. وللشاعر طاقته الابتداعية فيقوم بتوظيف الشخصية بحيث تناسب مع الحاجة العصرية.

الكلمات الدلالية: القناع، قناع الإمام الحسين عليه السلام، الإمام الحسين عليه السلام،

عبد الوهاب البياتي.



المقدمة

يعبر القناع من الميزات البارزة في الشعر؛ لأنَّ العوامل السياسية والاجتماعية في البلاد العربية خاصّة وما ألحقته في الإنسانية من أضرار فادحة، مادّياً ومعنوياً، جعلت الإنسان والشاعر، إزاء مجموعة من التناقضات ممّا دفعهما إلى الخروج عن دائرة المألوف، والتمرد على قيم الثبات والجمود، فكانت القصيدة الشعريّة محطّقه أولى أمام الشاعر، وميدان إبداعه. إنَّ الشاعر المعاصر يعمد إلى توظيف الأحداث والشخصيات التاريخية والدينية، لتكون تعبيراً عن مواقف يريدها، أو ليحاكم العصر ونقائضه من خلالها، وهو في ذلك يختار الأحداث والشخصيات التي تتلاءم ومضمون تجربته، فيتصل بها اتصالاً لا يعمقها وتكون استلهاماته التاريخية، والدينية صورة رامية للواقع المستفز بهموم القضايا السياسية حيث يخبىء الشاعر فيها لون فكره وخطوط رأيه. وصارت "تقنية القناع" مظهر أمن مظاهر الحدائث في الشعر العربي الحديث وتعد الشخصية التاريخية والدينية معادلاً فنياً، تعبر عن انكسار الواقع، وفقدان الذات لذلك لجأ الكثير من الشعراء المعاصرين ومن بينهم الشاعر عبداوهاب البياتي وهو من رواد الشعر العربي الحديث والشاعر العبقرى في هذا المجال، ونراه يهتم بموضوع القناع وإلى توظيف الشخصيات التاريخية والدينية ومن بينها شخصية الإمام الحسين عليه السلام لما تحمله من أبعاد توحى بقدرة الفرد على تغيير الواقع وتجاوز المحن. ويقبح الشاعر فيها أعمال الحكام المستبدين الظلمة فاختر الشاعر اسم الحسين عليه السلام رمز للمقاومة والاستشهاد دون أن يصرح قصّته مباشرة ويبيّن أسلوب الذين يريدون تضليل الناس وإبعادهم عن الذين بدلائل سخيصة متخلفة. أما هذه المقالة التي تحمل "قناع الإمام الحسين عليه السلام في شعر البياتي" فهي تهتم بدراسة القناع في الشعر العربي خاصة وعن سابقة الدراسة فعلينا أن نشير إلى دراسة "ظاهرة القناع" في كتاب "قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر" لمحمد على كندى وكتاب "استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر" لعلى عشرينى زايد وغيرها وعدة مقالات غير أنّ تلك الدراسات لم تتناول "ظاهرة القناع" بشكل تفصيلي وما وجدنا في أى كتاب ومقالة موضوع قناع الإمام الحسين عليه السلام في شعر البياتي. أما أسئلة البحث فهي: ١. ما هو مفهوم القناع وماهيته في الشعر العربي عامة وعند



البياتي خاصة؟ ٢. كيف وظّف البياتي قناع الحسين عليه السلام في شعره؟

عبد الوهاب البياتي وخصائصه الشعرية

«ولد عبد الوهاب البياتي، أحمد جمعة خليل البياتي في ١٩ كانون الأول سنة ١٩٢٦م في حي صغير بالقرب من مسجد الشيخ عبدالقادر الكيلاني في بغداد». (بيضون، لاتا: ١٣) «أكمل دراسته في دار المعلمين العالية عام ١٩٥٠م وانصرف منذ ذلك الحين إلى الأدب وطبع بعض الدواوين من أشعاره الوجدانية. غادر البياتي العراق عام ١٩٥٥م، وعاش في مصر ولبنان وسوريا. وزار معظم أقطار أوروبا الشرقية والغربية وفي سنة ١٩٦٣م أسقطت عنه الجنسية العراقية، وفي الفترة ١٩٧٠-١٩٨٠م أقام الشاعر في إسبانيا وفي شباط ١٩٩١م وصل البياتي واشنطن، إذ كانت لهذه الزيارة أهمية بسبب قصف القوات الأميركية وحلفائها بغداد. قال البياتي في مؤتمر صحافي هناك: إنَّ المغول دمّروا بغداد في العصور الوسطى ولكنهم كانوا أقلّ وحشية من هذا القصف الجائر الذي تقوم به الدولة حضارية كالولايات المتحدة. ومن هناك ذهب إلى عمان. وإنَّ إيران كانت آخر بلدة زارها البياتي الرحالة ثم غادر إلى دمشق، وأقام فيها حتى وفاته عام ١٩٩٩م. صدرت له الدواوين الشعرية، منها: ١. ملائكة والشياطين ٢. أباريق مهشمة ٣. رسالة إلى ناظم حكمت ٤. المجد للأطفال والزيتون ٥. أشعار في المنفى ٦. صفر الفقر والثورة ٧. الذي يأتي ولا يأتي ٨. قصائد حب على بوابات العالم السبع وأيضا له صدرت مسرحية ومؤلفات غير شعرية.» (فوزي، ١٣٨٣ش: ٣٢-٣٣-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٥٦)

ولشعره خصائص نشير إلى أهمها عابرين: «١. شعره رسم لأصوات غامضة تنبعث من جوف بئر الشفاه الإنساني، وشعره يحيل هذه الكلمات الغامضة المشوشة المتناثرة على نظام لغوي صارم. ٢. كتابته اختراق لكيقونة اللغة وكيقونة شعره المعبر عنه. ٣. شعره هو الذي يبقى في مواجهة الشر والظلم الكوني والتعاسة والموت. ٤. موضوعية شعره تربط الزمن في صنيعه الزمن الكلي وبذلك يقضي على الذاتية والواقعية والرومانسية. ٥. شعر البياتي هو شعر الثقافة العالمية وليس شعر البساطة، ففيه أبعاد وأعماق وإشارات ثقافية، إلى الأساطير والأديان والتاريخ والثقافة والتراث والآداب العربية والعالمية. ٦. شعر البياتي هو شعر الرمز والغموض



الجميل، غير المغلق والبناء المركب وهو بالشعر السهل. ٧. شعر البياتي هو شعر التقنيات الحديثة المعقدة، من دراما ومونولوج و... ٨. شعر البياتي هو القضايا الثورية والساسية الوطنية والعالمية المتشابكة. هذا وإنّ البنية الثقافية للمجتمع العربي بنية نامية متطورة، تستطيع متابعة شعر متطور، مثل شعر البياتي. ولعلّ البياتي أوّل شاعر يتحدّث فنّيًا عن مفهوم القناع في الشعر ولعله أيضا أكثر الشعراء قوّة ونضجا في استخدام القناع، بالإضافة إلى استخدامه الأسطورة والتاريخ والبياتي شاعر الصنعة، ولعلّ البياتي في العصر الحاضر يذكّر بأبي تمام في الشعر العربي القديم. ولقد حرص البياتي على موسيقا الشعر وضمّ شعره وهو يكتبه على التفعيلية، قوى الإيقاع وتؤكد حضور الموسيقى في الشعر، بما يناسب الشعر. «(دخيسي، موقع وحدة المغرب الالكتروني) تبدو عقيدة البياتي من خلال وطنيته وقد انبثق منها مذهب القومي، إنّه مغرم بالقومية إلى أبعد حدود الإيمان، وجعلها مصطلحا في أدبه ورمزا في فلسفته. عبدالوهاب البياتي كان من الشيوعيين وأنشد قصائد ديوانه الثاني "أباريق مهشمة" وكان ملتزما في هذه القصائد خاصة في قصيدة "مذكرات رجل مجهول" ويتكلم البياتي حول الإمام الحسين عليه السلام وترتبط بقضايا المجتمع. يرى الناقد الدكتور أحمد أبو حاقّة أن التزام البياتي مزيج من الماركسية والقومية والوجودية. (أبو حاقّة، ١٩٧٩م: ٤٤٥-٤٤٦)

«أصبح البياتي أكثر شهرة وتقدّم للقراء كشاعر تقدّمى ومناضل سياسى. فالسياسة قدّمت له الاشتهار وحققت له الطموحات وهكذا انجرّ البياتي، بسبب علاقته الأدبية بالشيوعيين، إلى نوع من النشاط السياسى يسمّى نشاطا ديمقراطيا.» (فوزى، ١٣٨٣ش: ٣٢) وبما أنّ شخصية كل أديب وأفكاره تنعكس في آثاره أى آثاره مرآة أفكاره وشخصيته، عندئذ نحن نرى هذا النوع من النشاط السياسى في شعر البياتي وآثاره.

القناع لغة واصطلاحا

المعنى اللغوى للقناع

تدل كلمة القناع على معان متعددة حسب المعاجم والكتب اللغوية: «ما تتفّعت به المرأة من ثوب تغطّي رأسها ومحاسنها. وألقى عن وجهه قناع الحياء.



والمقنَعُ والمقننعة ما تقنَعُ به المرأة رأسها وفم مقنَعُ أى إنسانة معطوفةٌ إلى داخل.» (ابن منظور، لسان العرب، مادة (قنع)؛ والبستاني، محيط المحيط، مادة (قنع)؛ وبسيسو، ١٩٩٩م: ٢٤)

المعنى الاصطلاحي للقناع

يعدُّ البياتي أول من أشار إلى القناع مصطحا نقديا في كتابه "تجربتي الشعرية" ولكنه ليس كذلك في مجال الإبداع الشعري ويقول خالد يسير في جريدة "الأسبوع الأدبي": «فقد سبقه الشاعر عمر أبوريشة في قصيدة له عنوانها "كأس" يمكن أن تعدّ من البدايات في استخدام تقنية القناع.» (يسير، جريدة الأسبوع الأدبي، العدد ٦٩٤) ولكن محمد على كندی يفترض: «أنَّ قصيدة "المسيح بعد الصلب" للسياب أولى القصائد التي تمَّ فيها توظيف "القناع" بشكل ناضج وفاعل في الشعر العربي.» (كندی، ٢٠٠٦م: ٨٣) هذا و«هو وسيلة فنية لجأ إليها الشعراء للتعبير عن تجاربهم بصورة غير مباشرة، أو تقنية مستحدثة في الشعر العربي المعاصر، شاع استخدامه منذ ستينيات القرن العشرين بتأثير الشعر الغربي وتقنياته المستحدثة، للتخفيف من الحدة الغنائية والمباشرة في الشعر وذلك من خلال الشخصية التراثية.» (عزام، ٢٠٠٨م: ١)

«فلما يرتدى الإنسان القناع الذي يخفي وجهه والرداء الذي يغطي جسده، يريد أن يخرج من شخصية أمام ذاته وأمام الآخرين ويدخل في ذات هوية أخرى.» (حداد، ١٩٨٦م: ١٤٩) وبناء على ذلك «يندمج في القصيدة صوتان: صوت الشاعر ومن خلال صوت الشخصية التي يعتبر الشاعر من خلالها.» (عزام، ٢٠٠٨م: ١) «ولكنَّهما متناغمان متآلفان في سمفونية واحدة وعمل واحد والصلة بين الشاعر وقناعه الرقيقة والعاجزة بينهما شفاف.» (موسى خليل، ٢٠٠٣م: ٢١٠) ولقد قام البياتي باستدعاء هذا المصطلح من النقد الغربي معرِّفا "القناع" بأنَّه: «الاسم الذي يتحدث من خلال الشاعر نفسه، متجردا من ذاتيته أى أنَّ الشاعر يعمد إلى خلق وجود مستقل عن ذاته، وبذلك يبتعد عن الحدود الغنائية والرومانسية التي تردى أكثر الشعر العربي فيها الانفعالات الأولى لم تعدّ شكل القصيدة ومضمونها بل هي الوسيلة إلى الخلق الفني المستقل. إنَّ القصيدة في



مثل هذه الحالة، عالم مستقل عن الشاعر - وإن كان هو خالقها - لاتحمل آثار التشويهاً والصرخات والأمراض النفسية التي يحفل بها الشعر الذاتى الغنائى.» (البياتى، ١٩٩٣م: ٤٠)

القناع فى الشعر

دوافع التقنّع

استخدم الشاعر العربى المعاصر القناع؛ وسيلة تعبيرية فى بناء القصيدة الحديثة، يدفعه إلى ذلك دوافع شتى يمكن أن ندرج عوامل اتجاه الشعراء العرب إلى استخدام القناع إلى خمسة أنماط وهذه المجموعات الخمس هى:

١. العوامل السياسية والاجتماعية ٢. العوامل النفسية ٣. العوامل الثقافية ٤.
٥. العوامل الفنية.

العوامل السياسية والاجتماعية

نحن نرى الظروف السياسية والاجتماعية الخائفة التى مرّت بها الأمة العربية و ظروف الحرب العالمية الثانية و ما ترتبت عنها من مؤامرات و دسائس، كانت سبباً من أسباب اتجاه الشاعر المعاصر العربى إلى استخدام الوسائل والأدوات الفنية الخاصة التى يستطيعون بواسطتها أن يعبروا عن آرائهم وأفكارهم فنيه غير مباشرة من بعطش السلطة ومن الأساليب التى لجأ إليها: استخدام الأسطورة، الرمز وتقنية القناع التى تكون ستارا يحتمى به أصحاب الكلمة ويلجأون وراءه من تنكيل السلطة ومن مواجهتها مباشرة بآرائهم فيها. (كندى، ٢٠٠٣م: ١٣٣-١٣٤)

إنّ شعر البياتى يمتلئ بالأقنعة التى ترتبط بالعوامل السياسية والاجتماعية فاستعار أصواتاً أخرى اتخذها أبواباً يسوق من خلالها آراءه والأصوات التى ارتبط بالتمرد على الواقع الفاسد فى عصرهم فانتشرت شخصيات كالحسين (عليه السلام) فى شعره ليمارس مقاوته للطغيان والتخلف.

العوامل النفسية

رأى على عشرى زايد أن: «دليل العودة واستخدام الأدباء والشعراء إلى توظيف القناع واستخدام التراث والأساطير يمكن أن يصوروا آلامهم وهمومهم من خلال

هذه الأفتنة، تلك الآلام والهموم التي تعجز الوسائل الشعرية العادية عن تصويرها وعندئذ كثيرا ما ينتاب الشاعر المعاصر نوعا من الإحساس بالغربة في هذا العالم، فكان هذا الإحساس المزدوج بالغربة وبجفاف الحياة وتعقيدها يدفعه إلى الواقع ونشدها عالم آخر أكثر نضارة وبكارة وأكثر سذاجة وعفوية في نفس الوقت وكان ينشد هذا العالم بين أحضان التراث والمعاصر كما فعل البياتي.» (عشرى زايد، ٢٠٠٦م: ٤٢-٤٤)

العوامل الثقافية

و هي العوامل التي ساعدت على اتجاه الشعراء المعاصرين إلى استخدام القناع وهذه العوامل يمكن أن نجعلها على أساس عاملين: «أولهما هو تأثير حركة إحياء التراث والدور الذي قام به رواد هذه الحركة في كشف كنوز التراث و تجلياتها و توجيه الأنظار إلى ما فيها من قيم فكرية و روحية و فنية صالحة البقاء والاستمرار؛ و أمّا العامل الثاني من هذه العوامل الثقافية فهو تأثير الشعراء العرب المعاصرين بالاتجاهات الداعية إلى الارتباط بالموروث في الآداب الأوروبية الحديثة ولقد كان هذا العامل مكملاً للعامل الأول.» (المصدر نفسه: ٢٥-٢٦) «ولقد كان من أهم العوامل التي تأثر بها الشعراء المعاصرين من الثقافة الأوروبية الحديثة دعوة الشاعر والناقد الانجليزي ت. اس. اليوت فيما يتعلق بتقنية القناع وإلى ضرورة ارتباط الشاعر بموروثه وإلى التقاليد الشعرية وضرورة إيجاد "المعادل الموضوعي" للعواطف والمشاعر، قد انتشرت انتشارا واسعا بين الشعراء والنقاد العرب وقد تكون محاولة الشعراء العرب تحقيق "المعادل الموضوعي" في قصائدهم واستلهام نماذجه المحققة شعريا في النتاجات الغربية، من أهم الأسباب التي قادت إلى ظهور "تقنية القناع" في القصيدة العربية الحديثة.» (كندي، ٢٠٠٣م: ١٤٩)

ولعل أثر "اليوت" ومعادله الموضوعي واضح في تعريف البياتي للقناع إذ «نحن نلمح في قول البياتي هذا صدى قويا لنظرة إليوت في المعادل الموضوعي.» (عشرى زايد، ٢٠٠٦م: ٢١) ولا يجد البياتي نفسه حرجا متابعة إليوت، بل ربما كان حريصا على ذلك في مثل قوله: «كنت أقيس المسافة بالكلمات، كما كان يفعل "إليوت" عندما كان يقيس الزمن بملاعق الشاي. ولذلك افتتن البياتي

بترديد أفكاره في كل مناسبة وبخاصة ما تعلق منها بالمعادل الموضوعي، متخذاً من تلك الأفكار مبرراً لاستخدام الشخصيات التراثية.» (كندی، ٢٠٠٣: ٧٠)

العوامل الفنيّة:

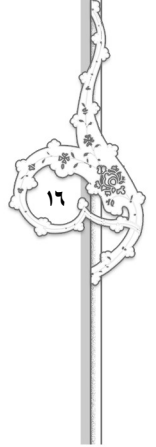
راح الشعراء يبحثون عمّا يخفف من السمات الغنائية والذاتية فظهرت داخل الشعر الحديث اتجاهات ذات منحى موضوعي تمثلت في خلق القصيدة ذات المنحى الدرامي وقصيدة المنولوج والقصيدة المتعددة الأصوات ولقد رغب شعراء العرب في الاستفادة من التقنيات الجديدة التي برزت في الشعر الغربي لإعطاء مزيد من الأبعاد الجمالية على أشعارهم، ولا شك أنّ القناع واحد من بين هذه التقنيات الجمالية تحدث عنها. (عمر يسير خالد، منتديات كوه)

العوامل القومية:

في البداية يمكن أن يكون اتجاه الشاعر العرب المعاصر إلى استخدام القناع وعلاقة بموروثه الاحتلال الإنجليزي والأمريكي وازدياد المطاعم الأوروبية في البلاد العربية وأيضاً كان لحرب حزيران عام ١٩٦٧م دور واضح في تعامل الشعراء أن يعتصموا بتراثهم وأبطالهم في مواجهة العدوان. وفي مجال الدافع إلى اختيار شخصيات الأئمة عند البياتي مثل: الحلاج، والإمام الحسين عليه السلام، والخيام، وعبدالله كوران... يمكننا القول حين تتعرض أمة من الأمم لخطر داهم يهدد كيانها القومي فإنها لا تلبث أن ترتد تلقائياً بحركة رد الفعل إلى جذورها القومية التي تركز عليها كل أمة في مواجهة أية رياح تحاول أن تعصف بوجودها القومي، فتمنحها إحساساً قوياً بشخصيتها القومية ويقينا راسخاً بأصالتها وعراقتها.» (عمر يسير خالد، منتديات كوه) واختار البياتي أيضاً هذه الشخصيات التراثية بأن تكون لدفاع عن قضية الإنسان في مواجهة العدوان.

أنواع القناع حسب أصولها

الشعراء يتقمصون الشخصيات الدينية، والتاريخية، والأدبية، والأسطورية... ذاتها قناعاً يحاولون من خلاله أن يبنوا أفكارهم، وأمانيتهم، والأفئدة جميعاً مستمدة من التراث إلا في القليل النادر الذي التفت فيه - خاصة البياتي - إلى



بعض الشخصيات الوطنية، أو الأدبية، أو القومية، أو الإنسانية المعاصرة، فيعبر من خلالها. ويمكن أن تقسم أنواع القناع وفي شعر البياتي إلى أربعة مصادر أساسية، هي: ١. الأئمة التاريخية: الإسكندر المقدوني، صلاح الدين الأيوبي، هاملت ٢. الأئمة الشعبية: السندباد، شهرزاد و... ٣. الأئمة الصوفية: الحلاج، ابن عربي و... ٤. الأئمة الدينية: النبي المسيح والإمام الحسين عليه السلام. والتراث الديني مصدر غني من مصادر الإلهام الأدبي، استمد منه الأدباء موضوعاتهم و نماذجهم الأدبية و الأدب العالمي يحفل بالكثير من الأعمال الأدبية العظيمة التي تدور حول الدين وقد كان الكتاب المقدس مصدرا للأدباء الأروبيين الذين استمدوا منه شخصيات ونماذج أدبية.» (عزام، ٢٠٠٨م: ١٤) و وظف البياتي بعض القصص و الرموز الإسلامية في شعره فالتأثير القرآني و الإسلامي محسوس في أشعار البياتي.

أنماط القناع

تتمثل "تقنية القناع" في أنماط متعددة منها: ١. القناع البسيط ٢. القناع المخترع ٣. القناع المركب.

القناع البسيط

«يعتمد الشاعر على شخصية واحدة مفردة، يسقط عليها تجربة معاصرة بكل همومها و هواجسها، بعد أن عايش تلك الشخصية، فترة من الزمن و تمثل عصرها و ظروفها.» (كندی، ٢٠٠٣م: ١٨٣)

إن الشعر الحديث مملوء بقصائد المفرد أو البسيط ونموذج لهذه النمط قصيدة "مذكرات رجل مجهول" من ديوان "أباريق مهشمة" و قصيدة أخرى "رسائل الإمام الشافعي" من ديوان "قصائد حب على بوابات العالم السبع" للشاعر عبد الوهاب البياتي في كيفية استخدام الرموز و شخصياته و إنه استطاع أن يبني القصيدة كلها على الرموز الواحدة.

القناع المخترع

القناع المخترع أو ما يسمّى قناع الشخصيات المبتدعة، أي ليس هناك شخصية تاريخية في الأصل بل الشاعر يبتدعها من واقعه التاريخي أو المعاصر



وتصبح من رموزة الشخصية.» (صدقى و عبدالله زاده، مجلة العلوم الإنسانية، ١٦)

قناع الإمام الحسين عليه السلام في شعر عبدالوهاب البياتى

كما نعلم اشتهر عبدالوهاب البياتى كثائر و مناضل ضدّ نظام غير متكافئ يسيطر على مجتمعه و من ثمّ قد حاول دوماً أن يحقّق العدالة و الحق. فمن هذا المنطلق نلمس المشابهة من حيث الأفكار والعقائد بينه وبين الشخصيات التراثية التى يوظفها كقناع فى أشعاره و منها الإمام الحسين عليه السلام. وذكر البياتى فى شعره، اسم الحسين عليه السلام رمز المقاومة والاستشهاد و قبة المظطهدين دون أن يسرد قصّته مباشرة. «البياتى، أثناء سفرته إلى ايران، قال فى ندوة أقيمت له فى مدينة قم: أنا عندما ورد اسم الحسين عليه السلام لم أكتب عنه شيئاً مباشراً، وأشرت إليه كرمز عظيم من رموز الاستشهاد و من التفكير أيضاً، يعنى وصفته كرمز و علامة من علامات التطور الإنسان أن أضعه كشيء مباشر ولكن كشيء فنى جاء فى قصائدى.» (فوزى، ١٣٨٣ش: ١٩٨)

يقول البياتى، فى قصيدته "مذكرات رجل مجهول" من ديوان "أباريق مهشمة":

أنا عامل، أدعى "سعيد"

من الجنوب

أبوأى ماتا فى طريقهما إلى قبر الحسين

وكان عمرى آنذاك

ستين، ما أقسى الحياة

وأشع الليل الطويل

والموت فى الريف العراقى الحزين

وكان جدى لايزال

كالكوكب الخاوى، على قيد الحياة.

(البياتى، الأعمال الشعرية، ج ١: ١٨٦)

استهلّ البياتى قصيدته مشيراً إلى عامل اسمه سعيد ويذكر لنا أنّ والديه

قدماتا و هما سافرا لزيارة مرقد الإمام الحسين عليه السلام. يمكن أن يرمز سعيد فى هذا



المقطع إلى الشعب العراقي الذي يعاني من وطأة الفقر بدليل الظروف السيئة التي تحكم العراق. إنهم التجأوا إلى العمالة للإنقاذ من الفقر وأيضاً يمكن أن نحسب والديه رمزا للشعب العراقي وخاصة للشيعة في العراق - اخترنا الشيعة لأنّ النزعة الاستشهادية فيهم أقوى بالنسبة إلى أقوام أخرى - الذين يثورون على النظام الفاسد الذي يحكم و يطلبون ترسيخ العدالة والحقيقة المفقودتين.

إنّ الموت في الطريق المؤدّي إلى قبر الحسين عليه السلام يكشف لنا عقيدة والدي سعيد، إنهما اختارا طريقة الحسين عليه السلام و عزموا على أن يثورا ضدّ الحكومة الفاسدة التي تسود على الشعب ولو لقيا حتفهما في سبيل نضالهما لأنّ هذا الموت يضمن تخليد الحقيقة للأجيال القادمة.

يختفي البياتي وراء قناع الحسين عليه السلام ويقول ما يروم. يقصد الشاعر أن يثير النزعة الاستشهادية والمكافحة بين الشعب و يقنهم أنّ الثورة وحدها تقدر على أن الحرية المسلوقة والحضارة المسحوقة ولا معنى للصمت و إن يدم التكلؤ فينتهي كلّ شيء، يموت الأمل و تحيطهم ليالي البؤس الحالكة. ربّما أياس البياتي ما رآه من الناس و فقد أمله لإنقاذ المجتمع فتدلّ هذه العبارة على خيبة أمله لأنّه يجد المناضلين ضدّ النظام مقتولين والعراق غارقاً في الحزن والألم و "جدّ" في هذه القصيدة رمز يغمر إلى العراق وهم نجم مطفىء في السماء مثل الناس في العراق الذين يعتبرون أمواتا متحرّكين.

يمكن أن نتطرّق إلى هذا المقطع من وجهة نظر أخرى؛ فالموت في سفر الزيارة يذكرنا بجملات انتحارية في المراقد المطهّرة للأئمة الهدى (عليهم السلام) إنّ محبّي أهل البيت عليهم السلام يتحينون الفرص للاجتماع في تلك المراقد لكنّ هذه الاجتماعات تؤدّي المستعمرين والإرهابيين ذوى الصلة بهم لأنّهم يحسبونها من أسباب الوحدة والطغيان عليهم و لذلك يقبلون على الاغتيال والمجزرة.

و في قصيدة أخرى "رسائل إلى الإمام الشافعي" من ديوان "قصائد حبّ على بوابات العالم السبع" يتحدّث الشاعر عن طفولته التي ارتبطت بفقراء الأرض و معجزات الفجر و رموز الشهادة و القوّة:

قبلت شباك "الحسين" وغسلت الحجر الأسود بالدموع

نضوت في مواكب العزاء

طفولتي مستنجدا بقوة الأشياء

بفقراء الأرض

و معجزات الفجر

(المصدر نفسه، ج ٢: ٢٤٢ - ٢٤٣٩)

يشرح البياتي في تلك الأسطر أنه آمن بالحسين إيمانا ينبع من القلب وبالعقائد الحسينية وخاصة النزعة الاستشهادية وعدم الاستسلام أمام الظلم. إنه زار قبر الحسين عليه السلام و قبل ضريحه المطهر و ذرف الدمع هناك فجرى الدمع للحسين عليه السلام يمحو آثار الذنب السوداء من القلب. يحكى البياتي لنا أنه بكر بكاء مرًا في هيئات التعزية إلى أن وجد نفسه على وشك الموت يمكن أن نقول إن الشاعر يشير إلى عقائد الناس في الأيام الخالية التي كانت وثيقة جدًا و من ثم كانوا مضطرين ضد الظالمين و كانت النزعة الاستشهادية و أتباع الحسين عليه السلام فيهم أكثر و أقوى ولكنهم الآن استغاثوا بالصمت و التغافل يريد البياتي، كما أشرنا سابقا، أن يحيى النزعة الثورية في الشعب و إن خيمت عليه قلة الأمل أو قلة اليأس القاتل.

يقدم البياتي لنا لمحة عن حياته الطفولية و أتصاله بالفقراء قائلا إن الناس آنذاك كانوا أنشط لمساعدة الفقراء و يبذلون قصارى جهدهم في هذا السبيل. يحكى الشاعر عن إعجاز الفجر أي إلحاح الناس على أن يعينوا الفقراء قبل طلوع الفجر و دون أن يعلم الآخرين. في الحقيقة يروى البياتي لنا ذكريات الطفولة الحلوة و يتأسف لهذا العهد الذي ماتت الأوصاف الحسينية في القلوب بعد أن يسيطر المستعدون و الحكام العملاء على المجتمع.

النتيجة

إنّ القناع أحد أشكال الرمز و وسيلة للتعبير عن تجربة معاصرة و يعبر الشاعر من خلال القناع تعبيرا غير مباشر عن أفكاره السياسية و الاجتماعية و تجليا من تجليات حداثة القصيدة العربية. لعلّ البياتي أول شاعر يتحدّث فنيا عن مفهوم القناع في الشعر و لعله أيضا أكثر الشعراء قوة في استخدام القناع، بالإضافة إلى استخدام الشخصيات التاريخية و الدينية و... و شعر البياتي هو شعر القضايا الثورية، و السياسية، و الوطنية، و العالمية. توظيف الإمام الحسين عليه السلام في قصيدة



البياتي يكون بشكل مكثف و تراءى قناع هذه الشخصية في أنماطه المختلفة في مواضع شتى، ليعبر به عن ملامح تجربة أولا ومعاناة نفسه وشعبه ثانيا. يعتمد البياتي في قناع الإمام الحسين عليه السلام على الأفكار والرموز الإسلامية و خاصة الشيعة. اشتهر البياتي كثائر و مناضل ضد النظام الفاسد يسيطر على مجتمعه و يريد أن يحقق العدالة و بهذا السبب نلمس المتشابهة من حيث الأفكار و العقائد بينه و بين الشخصيات التي يوظفها كالقناع في أشعاره و منها الإمام الحسين عليه السلام. ذكر البياتي في شعره اسم الحسين عليه السلام رمزا للمقاوة و الاستشهاد دون أن يبين قصته مباشرة.

